علم الدين السخاوي (ت 643هـ) ومنهجه في كتابه: "تفسير القرآن العظيم"

الباحث: ليلى معلوم
جامعة محمد الخامس، الرباط
المغرب

مقدمة:

الحمد لله الذي يوافي نعمه ويكافئ مزيده، حمدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على من اختاره الله خاتما للرسالات، وامتن عليه بأعظم المعجزات، وسلم تسليما كثيرا ملء الأرض والسموات.

وبعد، فإنه مما لا شك فيه أن من أجل العلوم قدرا، وأكثرها فائدة ونفعا علمَ التفسير، العلم الذي نال شرف الفضل، بشرف ما تعلق به، ذلك أن العلوم إنما تشرف بشرف متعلقاتها، كما يقول العلماء في معرض حديثهم عن مبادئ العلوم، ولا أشرف ولا أفضل من كتاب ربنا سبحانه.

وهذا الشرف والفضل يسري أيضا على البحث في التراث التفسيري للعلماء الذين أولوا عناية خاصة لكتاب الله تعالى؛ مثل الإمام علم الدين السخاوي من أعلام القرن السابع الهجري، حيث كرس حياته لخدمة كتاب الله تعلما وتعليما وتقعيدا وتأصيلا وشرحا وتفسيرا، وترك تراثا علميا زاخرا في القرآن وعلومه، مما يقتضي من الباحثين الاشتغال على تراثه وبيان جهوده والوقوف على منهجه في تناول وخدمة الدرس التفسيري من كل جوانبه، وخاصة في كتابه: "تفسير القرآن العظيم".

ومن هنا فإنني سأقتصر في هذا المقال على بيان المنهج التفسيري لهذا العالم الجليل، وذلك من خلال المبحثين التاليين:

المبحث الأول: التعريف بعلم الدين السخاوي وكتابه: "تفسير القرآن العظيم".

المبحث الثاني: منهج الإمام علم الدين السخاوي في تفسيره.

المبحث الأول: التعريف بعلم الدين السخاوي وكتابه: "تفسير القرآن العظيم".

سأحاول في التعريف بالإمام علم الدين السخاوي أن أركز على كل ما يخدم الدرس التفسيري عند هذا العالم الجليل، سواء فيما يتعلق بحياته العلمية والفكرية، أو ما يتعلق بعصره وشيوخه، وإنتاجه العلمي والفكري، وذلك من خلال المطالب الآتية.

المطلب الأول: علم الدين السخاوي وشخصيته العلمية

أولا: اسمه ونسبه وكنيته.

أجمع الذين ترجموا لعلم الدين السخاوي على اسمه ولقبه وكنيته، فهو علم الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الأحد بن الغالب بن غَطَّاس الهَمْداني السخاوي الدِّمشقي[1]. و"الهَمْدَانيّ "اسم لقبيلته وهو نسبه إلى هَمْدان بن مالك بن زيد بن أَوْسَلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[2].و"السَّخَاويّ" هذه النسبة إلى مسقط رأسه "سخا"[3]، وهي بليدة بالغربية من أعمال مصر، قال ابن خلكان: "وقياسه سَخَوِيّ، لكن الناس أطبقوا على النسبة الأولى"[4]. وأما "علم الدين" فلقبه، وأما كنيته فأبو الحسن وقلَّما يذكر لقبه دون كنيته أو العكس[5].

ثانيا: نشأته ورحلاته العلمية.

بدأ الإمام السخاوي طلبه العلم في سن مبكرة بمسقط رأسه (سخا) على شيخه أبي إسحاق إبراهيم بن جبارة السخاوي المالكي[6]، فحفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادئ الفقه المالكي، ثم غادر بلده سنة 572هـ ولم يتجاوز الرابعة عشر إلى الإسكندرية، وسمع من خيرة علمائها كالإمام أبي طاهر السلّفي، ومن أبي الطاهر بن عوف[7].

ثم انتقل إلى القاهرة وقرأ على شيوخها وسمع منهم، و"كان مبدأه الاشتغال بالفقه على مذهب مالك بمصر، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي، وسكن بمسجد بالقرافة يؤمّ فيه مدة طويلة، فلما وصل الشيخ أبو القاسم الشاطبي إلى تلك الديار واشتهر أمره لازمه مدة، وقرأ عليه القرآن بالروايات، وتلقف منه قصيدته المشهورة في القراءات"[8]، وهو الذي " شَهَرَها بين الناس وشرحها، وبيَّن معانيها وأوضحها، ونبَّهَ على قدر ناظمها "[9].

وانتقل الإمام علم الدين السخاوي إلى دمشق، وذكر ياقوت الحموي سبب انتقاله فقال: "وكان يُعَلّم أولاد الأمير ابن مُوسَكَ، وانتقل معه إلى دمشق، واشتهر بها بعلم القرآن"[10]. ولقي في دمشق ثلة من العلماء الأعلام، واختص بملازمة بعضهم والأخذ عنهم والتلقي منهم، فسمع من الشيخ أبي اليُمن زيد بن الحسن الكندي البغدادي، المتوفى سنة ثلاث عشرة وستمائة (613هـ) جملة من سماعاته ومروياته في القراءات والآداب وغير ذلك[11].

ولما استقر بدمشق اشتغل بالتأليف والتدريس، فكانت له حلقة بجامع دمشق، وكانت حلقته عند المكان المسمى بقبر يحيى بن زكريا، وكان في الوقت نفسه شيخ الإقراء بالتربة الصّالحية وكان منزله هناك[12]، وأقرأ الناس نيفا وأربعين سنة[13].

كما سنحت للإمام علم الدين السخاوي فرصة الحج، فحج سنة (598هـ)[14]، ولم يعرج ابن خلكان على ذكر تفاصيل هذه الرحلة وما واكبها من نشاط علمي أو غيره.

ثالثا: شيوخه وتلامذته:

استكثر الإمام علم الدين السخاوي من الأخذ عن العلماء والرواية عنهم، وفي مقابل ذلك تتلمذ على يديه ثلة من العلماء.

– أولا: شيوخه.

تتلمذ الإمام السخاوي على أيدي جهابذة العلماء، وكبار الأدباء، وشيوخ القراء، وأعيان الحفاظ، ساهموا في تكوين شخصيته العلمية وصقلها، وكانوا له قدوة أنارت طريق النجاح والتفوق، وقد احتفظت كتب التراجم والطبقات وبعض مصنفات السخاوي بأسماء بعضهم، وفي ما يلي بيان لبعض أسمائهم، مرتبة على نسق حروف المعجم:

– **ابراهيم بن جبارة** (أبو إسحاق) السخاوي المالكي، قرأ عليه السخاوي في بلدته (سخا) قبل أن يشد الرحال إلى الإسكندرية[15].

– **أحمد بن محمد** بن أحمد بن محمد بن إبراهيم (أبو طاهر)، حافظ الإسلام، وأعلى أهل الأرض إسنادا في الحديث والقراءات، مع الدين والثقة والعلم. قرأ القراءات على أبي الفتح أحمد بن محمد الحداد، وأبي الخطاب علي بن عبد الرحمن بن الجراح، ولقي أعيان المشايخ، وكان شافعي المذهب، ورد بغداد، واشتغل بها على يد الكيا الهراسي في الفقه وغيره، ودخل ثغر الإسكندرية، وبها أخذ عنه السخاوي[16].

– **إسماعيل بن صالح** بن ياسين بن عمران الشفيقي (أبو الطاهر) المقرئ الصالح، روى عن أبي عبد الله الرزاز مشيخته وسُداسياته، وسمع منه السخاوي بمصر. توفي في ذي الحجة سنة ست وتسعين وخمسمائة (596هـ)[17].

– **داود بن أحمد بن منصور** بن ثابت بن الحارث بن الملاعب (أبو البركات) البغدادي المعروف بالربيب، مسند جليل، روى القراءات عنه السخاوي. توفي بدمشق في جمادى الآخرة سنة ست عشرة وستمائة (616هـ)[18]، وذكره أبو شامة في وفيات سبع عشرة وستمائة (617هـ)[19].

– **القاسم بن فيرّه** بن خلف بن أحمد (أبو القاسم وأبو محمد) الشاطبي الرعيني الضرير، ولي الله الإمام العلامة أحد الأعلام الكبار والمشتهرين في الأقطار، كان إماما كبيرا غاية الذكاء، غاية في القراءات، حافظا للحديث، بصيرا بالعربية، إماما في اللغة والأدب، مع الزهد والولاية والعبادة والانقطاع[20]، لازمه السخاوي مدة طويلة بالديار المصرية، وتلا عليه بالسبع، وعرض عليه قصيدتيه المشهورتين: حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع، وعقيلة أتراب القصائد في رسم القرآن، واستفاد منه علوما جمة، وأسند القراءات عنه، وكان من أجل أصحابه[21].

– ثانيا: تلاميذه.

تتلمذ على يد الإمام السخاوي جم غفير من العلماء، وأخذوا عنه مختلف العلوم والمعارف، وسأكتفي في هذا المقام بذكر بعض أسمائهم وسنة وفاتهم، مرتبة على نسق حروف المعجم كالتالي:

1– إبراهيم بن داود بن ظافر بن ربيعة، الشيخ جمال الدين أبو إسحاق العسقلاني، توفي سنة (692 هـ)[22].

2 – إبراهيم بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد، الشيخ المسند العدل زين الدين أبو إسحاق بن نجم الدين بن تاج الدين الشيرازي ثم الدمشقي، توفي سنة (714 هـ)[23].

3– أحمد بن إبراهيم بن سباع الفزاري، توفي سنة (705 هـ)[24].

4– أحمد بن يوسف بن حسن بن رافع الشيباني، المفسر المعروف بالكواشي، عالم زاهد، برع في العربية والقراءات والتفسير توفي سنة (680 هـ)[25].

5- عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان (شهاب الدين أبو شامة)، ولازم الإمام السخاوي كثيرا، وقال أبو شامة عن شيخه السخاوي: (ومنه استفدت علوم جمة كالقراءات والتفسير وعلوم فنون العربية، وصحبته من شعبان سنة أربع عشرة، ومات وهو عني راض والحمد لله على ذلك)[26]، توفي سنة (665 هـ)[27].

رابعا: مذهبه العقدي والفقهي.

لعقيدة المفسر ومذهبه الفقهي أثر في تفسيره، ويظهر ذلك من خلال انتصار المفسر للمذهب الذي ينتمي إليه أثناء التفسير، وبقراءة " تفسير القرآن العظيم "، تنجلي لنا عقيدة الإمام علم الدين السخاوي ومذهبه الفقهي، وتفصيل ذلك كله ما يلي:

أولا: مذهبه العقدي.

كان الإمام علم الدين السخاوي – رحمه الله – على مذهب أهل السنة في الاعتقاد، وتجلى هذا الانتماء العقدي في تفسيره في عدَّة مواضع، منها ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[28] فقد أثبت رؤية الله تعالى[29] وهي رؤية دون محاذاة ولا تكييف ولا تحديد كما هو معلوم، موجود لا يشبه الموجودات كذلك هو لا يشبه المرئيات في شيء، فإنه ليس كمثله شيء لا إله إلا هو.

وفسر الحي الواردة في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [30] بالواجب الحياة، بخلاف ما ذهبت إليه المعتزلة إلى أن معناها: أن الله تعالى حي لا بحياة [31].

وأثناء تفسيره يدحض الآراء الاعتزالية ويكشف وجهة نظره، مثلا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾[32]، هذه الآية دليل على أن النار مخلوقة، وقالت المعتزلة: لا فائدة من خلقها الآن وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ يرد عليهم ظاهراً [33].

وغيرها من النماذج التي يطول المقام بذكرها والتي تؤكد أن مذهبه في الاعتقاد هو مذهب الأشاعرة، وقد يكون تمذهب الإمام السخاوي بالمذهب الأشعري راجعا إلى كون أن صلاح الدين الأيوبي قد حمل الكافة على اتباع عقيدة أبي الحسن الأشعري في الاعتقاد، وشرط ذلك في أوقافه بالديار المصرية وغيرها من المدارس العلمية، كالمدرسة الناصرية[34].

ثانيا: مذهبه الفقهي.

لقد كان للبيئة التي نشأ فيها السخاوي أثر في تحديد مذهبه الفقهي، حيث ترعرع في أحضان مشايخ وعلماء المذهب المالكي، كالشيخ أبي اسحاق إبراهيم بن جبارة السخاوي، الذي تلقى على يديه المبادئ الأولية للمذهب.

قال أحمد بدوي: "واشتغل في أول أمره بالفقه على مذهب مالك، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي، وهو الذي كان يفتي به"[35].

ومع أن الإمام السخاوي كان إماما مقرئا مجودا، بصيرا بالقراءات وعللها، ماهرا بها، إماما في النحو واللغة، إماما في التفسير، حيث انتهت إليه رئاسة الإقراء والأدب بدمشق[36]، إلا أنه كانت له معرفة تامة بالفقه والأصول، وبخاصة المذهب الشافعي[37]، إلى درجة أنه كان يفتي على مذهب الشافعي[38]، وأن تاج الدين السبكي وابن قاضي شهبة عداه من أعيان المذهب الشافعي[39].

وقال الذهبي – أثناء ترجمته للسخاوي – كان بصيراً بمذهب الشافعي[40]، وسبق كذلك أن السيوطي ترجم له ضمن فقهاء الشافعية الذين كانوا في مصر[41].

خامسا: مؤلفاته ومكانته العلمية.

إن المستعرض لمجموع شيوخ الإمام السخاوي على اختلاف اختصاصاتهم تتضح له المكانة العلمية الكبيرة التي بلغها في الفنون المتعددة، ولذا فلا غرابة أن تنتهي إليه رئاسة الإقراء والأدب في زمانه بدمشق، وحسبنا أن نعلم الفنون التي برز فيها كما تذكر كتب التراجم وهي: القراءات والتفسير والحديث واللغة وغيرها، يصفه تلميذه أبو شامة بقوله: "علامة زمانه، وشيخ عصره ... وختم بموته موت مشايخ الشام يومئذ، وفقد الناس بموته علما كثيرا، ومنه استفدت علوما جمة كالقراءات، والتفسير وعلوم فنون العربية، وصحبته من شعبان سنة 614هـ، ومات وهو عني راض"[42].

ويقول عنه الإمام الذهبي:" كان إماما في العربية، بصيرا باللغة، فقيها، مفتيا، عالما بالقراءات وعللها، مجودا لها، بارعا في التفسير، صنف وأقرأ وأفاد، وروى الكثير، وبعد صيته، وتكاثر عليه القراء"[43].

ويقول أيضا:" وانتهت إليه رئاسة الإقراء والأدب في زمانه بدمشق، وقرأ عليه خلق لا يحصيهم إلا الله، وما علمت أحدًا في الإسلام حمل عنه القراءات أكثر مما حمل عنه، وله تصانيف سائرة متقنة"[44].

وقال ابن الجزري: " كان إمامًا علامة محققًا مقرئًا مجودًا بصيرًا بالقراءات وعللها إمامًا في النحو واللغة والتفسير والأدب، أتقن هذه العلوم اتقانًا بليغًا. وليس في عصره من يلحقه فيها، وكان عالما بكثير من العلوم غير ذلك مفتيا أصوليًا مناظرًا "[45].

مما تقدم من الأقوال، يظهر لنا جليا ما كان عليه السخاوي من العلم الواسع في كثير من العلوم، وعلو درجته فيها، والتي شهد له فيها علماء كبار عاصروه وتتلمذوا عليه، وقرأوا مصنفاته.

وقد تنوعت مؤلفات الإمام السخاوي تبعا لثقافته الواسعة وتخصصاته المتعددة، والتي شملت: التفسير والقراءات، وعلوم اللغة العربية وغير ذلك.

قال الذهبي: "وله تصانيف سائرة متقنة "[46]، ووصفه صاحب طبقات الشافعية الكبرى بأنه ذو "المصنفات الكثيرة"[47].

وسأقتصر على أهم آثاره مرتبة حسب المواضيع على حروف المعجم، مع الإشارة إلى ما طبع منها، وأماكن وجود نسخ أو صور من مخطوطاتها وأرقامها، معتمدة في ذلك على ما تسعف به المصادر والمراجع:

- **مصنفاته في الدراسات القرآنية:**

– **الإفصاح الموجز في إيضاح المعجز**: مختصر في إعجاز القرآن، وهو الكتاب الثاني من سلسلة كتب عديدة ضمنها كتابه القيم " جمال القراء وكمال الإقراء "[48].

– **تاج القراء**: ذكره له الفيروز آبادي[49].

– **تفسير القرآن العظيم**: وهو موضوع البحث، وسيأتي الكلام عنه مفصَّلا إن شاء الله تعالى.

– **جمال القراء وكمال الإقراء**: كتاب مطبوع، وهو رسالة دكتوراه قام بدراستها وتحقيقها عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي، وأشرف عليها الدكتور محمد سالم المحيسن، نشرة مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، الطبعة الأولى (1419هـ – 1999م).

– **روض القرآن وحوض الظمآن:** ورد ذكره في ختام كتاب " علم الاهتداء في معرفة الوقف والابتداء، حيث قال:" وقد كنت ناوياً أن أضيف إلى هذا التصنيف كتاباً آخر أسمّيه "روض القرآن وحوض الظمآن "، يشتمل على مواضع من القرآن تحتاج إلى معرفة معانيها، وإيضاح مشكلها، وكشف ما خفي من إعرابها، وأنا على ذلك بمعونة الله، وتيسيره، إن تأخر الأجل، وساعد القدر، على بلوغ الأمل، وإلا فقد وقفت على الوقف، وعجلت إبراز هذا الكتاب إسعافاً لطالبيه، ولم أجد من ذلك بدًّا لكثرة من يستدعيه"[50].

– **فتح الوصيد في شرح القصيد:** وهو كتاب في مجلدين، شرح فيه قصيدة الإمام الشاطبي " حرز الأماني ووجه التهاني ".

➢ **مصنفاته في الحديث الشريف والسيرة النبوية:**

– **أرجوزة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم:** ذكرها بروكلمان، وتوجد منها نسخة بمكتبة برلين برقم (9876).

– **ذات الأصول في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم:** وهي القصيدة من البحر الطويل، وهي الأولى في ترتيب القصائد السبع، عدد أبياتها (151) بيتا [51].

➢ **مصنفاته في الفقه:**

– **أرجوزة في الفرائض:** ذكرها له اليماني في إشارة التعيين[52].

– **تحفة الناسك في معرفة المناسك**[53].

➢ **مصنفاته في النحو واللغة:**

– **ذات الحُلل ومَهَاة الكلل:** وهي قصيدة في ما اتفق لفظه واختلف معناه، عدد أبياتها (243)، وقد ألحق السخاوي هذا الكتاب بمصنفه "سفر السعادة وسفير الإفادة".

– **سفر السعادة وسفير الإفادة:** قام بتحقيق هذا الكتاب الأستاذ محمد أحمد الدالي، ونال به درجة الماجستير، من كلية الآداب بجامعة دمشق، سنة 1402هـ، ونشره مجمع اللغة العربية بدمشق سنة 1403هـ.

– **المفضل في شرح المفصل:** قال عنه ابن الجزري:"كتاب نفيس في أربعة أسفار"، شرح فيه كتاب المفصل للزمخشري[54].

سادسا: وفاته.

بعد حياة حافلة بالعطاء المثمر، نافت على تسعين سنة توفي الشيخ علم الدين السخاوي، وذلك ليلة الأحد الثاني عشر من شهر جمادى الآخرة، لعام ثلاث وأربعين وستمائة للهجرة (643هـ).

المطلب الثاني: تفسير القرآن العظيم وقيمته العلمية

أولا: التعريف بتفسير القرآن العظيم.

أردت في هذا المطلب التعريف بتفسير الإمام علم الدين السخاوي، لإعطاء صورة واضحة عنه، وللوقوف على ما استوعب وشمل، ولبيان أهمية هذا السفر الجليل الرائد في تفسير القرآن، وللتعريف بـ" تفسير القرآن العظيم " تمَّ تقسيم المطلب إلى ستة محاور هما كالآتي:

المحور الأول: اسم التفسير ونسبته لمؤلفه:

أجمع العلماء الذين ترجموا لعلم الدين السخاوي على نسبة الكتاب إليه، واشتهر ذلك بين طلبة العلم، وأهم ما يؤكد تسمية هذا التفسير، ما جاء في النسخة المخطوطة بدار الكتب المصرية والتي جاءت كاملة في مجلدين، وكتب على غلاف كل مجلد" تفسير القرآن العظيم للشيخ الإمام العالم العامل، العلامة فريد دهره، ووحيد عصره، علم الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي تغمده الله برحمته آمين"، ويؤكد ذلك أيضا نقول العلماء المفسرين الأجلاء لمادته في تفاسيرهم، كأبي حيان في البحر المحيط الذي نقل عنه رأيا فقهيا تفسيريّاً حول الصلاة الوسطى، فذكر أنه قيل إنها الوتر، قال: "واختاره أبو الحسن علي بن محمد السخاوي النحوي المقرئ"[55]، والحافظ ابن كثير عند تفسير سورة التوبة عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ إِثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالاَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾[56]. فقال: "ذكر الشيخ علم الدين السخاوي في جزء جمعه سماه «المشهور في أسماء الأيام والشهور» أن المحرم سمي بذلك لكونه شهرا محرما، وعندي أنه سمي بذلك تأكيدا لتحريمه لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عاما وتحرمه عاما. قال: ويجمع على محرمات ومحارم ومحاريم..."[57].

بالإضافة إلى أن أغلب من ترجم للإمام علم الدين السخاوي ذكر أن له تفسيرا وصل فيه إلى سورة الكهف، ووقع في أربع مجلدات، إلا أنهم لم يذكروا تسمية هذا التفسير كاملا. وفي هذا غناء حيال توثيق عنوان هذا الكتاب ونسبته إلى الإمام علم الدين السخاوي.

المحور الثاني: سبب تأليف كتاب تفسير القرآن العظيم

كان الباعث الذي حمل الإمام علم الدين السخاوي على تأليف هذا التفسير، هو أنه أراد التقرب إلى الله عز وجل بعمل يكون له خالصاً لوجهه، فاختار لنفسه علم التفسير لارتباطه بأعظم كتاب وهو القرآن الكريم، بالإضافة إلى اهتمامه ببيان معاني مفردات القرآن الكريم، يقول في ذلك رحمه الله: " فاستخرت الله تعالى في سلوك طريق متوسط، لا بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، ساعيا في تهذيب الألفاظ وتحريرها، وإيجازها وتيسيرها، مشيراً إلى عيون القصص بأحسن إشارة، متوخيا في الإعراب والأقوال وغيرهما أوجز عبارة، وهو عمدة لمن اعتمد عليه، والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه، موجبا للفوز لديه، وهو حسبي ونعم الوكيل"[58].

المحور الثالث: طبعات التفسير.

قيَّض الله لهذا السفر النفيس الخروج إلى النور سنة 1430هـ، بعد أن كان حبيس رفوف المخطوطات، وقد طبع طبعة وحيدة في جزأين بعنوان "تفسير القرآن العظيم"، وهي بتحقيق وتعليق الدكتور موسى علي موسى مسعود، والدكتور أشرف محمد عبد الله القصاص، صدرت عن دار النشر للجامعات، القاهرة، سنة 1430هـ – 2009م.

المحور الرابع: قيمته العلمية.

يعد تفسير علم الدين السخاوي ثمرة من ثمرات جهوده اليانعة وعوامل كثيرة تضافرت على تكوينه؛ منها ما يرجع إلى البيئة الزمانية والمكانية، ومنها ما يرجع إلى الشيوخ الذين تلقى عنهم.

ولهذه العوامل وغيرها، احتل تفسير الإمام علم الدين السخاوي مركزا مرموقا بين كتب التفسير، لذلك أقبل عليه العلماء وأثنوا عليه على مر العصور، قال ابن الجزري (ت: 833هـ) بعد أن ترجم له ترجمة حافلة:" وكتاب التفسير وصل فيه إلى الكهف في أربعة أسفار، من وَقَفَ عليه عَلِمَ مقدار هذا الرجل، ففيه من النكت والدقائق ما لم يكن في غيره"[59].

ويمكن إجمال قيمته العلمية في جوانب متنوعة أذكر منها:

– جلالة مؤلفه ومبلغه من العلم وعلو منزلته، فقد" كان إماما علامة، مقرئا، محققا، مجودا، بصيرا بالقراءات وعللها، ماهرا بها، إماما في النحو واللغة، إماما في التفسير، كان يتحقق بهذه العلوم الثلاثة ويحكمها، وله شعر رائق ومصنفات في القراءات والتجويد والتفسير"[60].

– تتلمذ الإمام السخاوي على أيدي جهابذة العلماء، وشيوخ القرّاء، وأعيان الحفاظ أمثال الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن جبارة، وأبو الجيوش عساكر بن علي الشافعي، وتاج الدين أبو اليُمن الكندي، إضافة إلى أحد الأعلام الكبار والمشتهرين في الأقطار القاسم بن فيرّه الشاطبي الرعيني الضرير.

– ظهور أثر هؤلاء الشيوخ جليا في تكوين شخصيته العلمية، حيث أصبح بعدهم إماما في العلم متضلعاً، وتبوأ المنزلة العلمية الرفيعة التي أهلته إلى حسن التصنيف وجودة التأليف.

من خلال هذا العرض تظهر لنا القيمة العلمية التي اكتسبها تفسير علم الدين السخاوي وفائدته المرجوة، والدلائل على عظيم تأثيره فيمن أتوا بعده.

المحور الخامس: مصادر الإمام السخاوي في تفسيره.

أما عن مصادر الإمام السخاوي رحمه الله في تفسيره هذا، فعند النظر والتأمل في المادة التفسيرية التي عرضها، نجده ينهل من فنون مختلفة، ومن مشارب متنوعة، سواء أكانت ضرورية في التفسير كالمتعلقة منها بعلوم القرآن، أو علوم العربية من النحو، والصرف، والبلاغة وغيرها من فنون العربية، أو غير ضرورية، كالفقه، والحديث وما إلى ذلك.

فعند قراءة تفسير السخاوي وتصفحه، نجد هذه الفنون منثورة في كتابه هذا بشكل أو بآخر، حسب المقام الذي يقتضي استحضار مادة معينة، تفي بغرض العملية التفسيرية، وتقرب المعنى إلى القارئ.

وبما أن الإمام السخاوي رام الإيجاز والاختصار؛ من أجل تقريب علم التفسير والمراد من كلام ربنا سبحانه إلى عامة الناس، سواء كانوا علماء أو متعلمين، فإنه لتحقيق هذا الغرض، حاول أن يجمع فيه بين الرواية والدراية (التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي) في أحسن إشارة، وأوجز عبارة، غير أنه لم يفصح عن تلك المصادر التي اعتمد عليها واستاق منها مادته العلمية إلا نادرا، مما جعلني أركن في هذا الباب إلى الاجتهاد، عن طريق المقارنة، والبحث والتخمين؛ لأنه ربما لم يسمح له المقام بأن يكشف لنا عن تلك المصادر والمراجع المعتمدة في تفسيره، والعذر له؛ لأنه بصدد الإيجاز والاختصار وتحرير العبارات وتهذيبها، لا بصدد حكاية الأقوال والآراء، والدليل على ذلك أنه لم يقم بالعزو ونسبة القول إلى قائله إلا نادرا. ومن ثم كان القيام باستخراج المصادر من هذا التفسير من الصعوبة بمكان. وليس القصد ها هنا حصر كل ما استند عليه، بل الغاية أن يُشار إلى ما ارتكز عليه من المصادر التي انتقى منها علومه حسب ما أسفرت عنه عملية الاجتهاد والتخمين والتنقيب في الكتاب، ويمكن تصنيف هذه المصادر حسب موضوعاتها إلى ما يلي:

- **مصادر الإمام السخاوي في التفسير وعلوم القرآن:**

– كتاب جامع البيان في تفسير آيات القرآن للإمام الطبري (ت314هـ).

هذا الكتاب من أهم المصادر التي يعتمد عليها المفسرون، باعتباره كتابا جامعا، وباعتبار تلك المكانة والمنزلة التي حظي بها بين المفسرين، وكتب التفسير، ولا شك أن السخاوي رحمه الله اعتمد عليه بكثرة كغيره من المفسرين، خصوصا في باب الرواية والنقل، سواء في تفسير القرآن بالقرآن، أو تفسير القرآن بالسنة، وأقوال الصحابة والتابعين، كما نقل عنه في مواضع يصعب حصرها، سواء أكان نقلا صريحا أو بالمعنى.

ومن أمثلة ما نقله الإمام السخاوي من تفسير الطبري:

1 – ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾[61]، يقول السخاوي في تأويل ﴿ صَفْرَآءُ﴾ شديدة الصفرة، وقيل: سوداء[62].

وما ذكره الإمام السخاوي هنا ملخص من تفسير الإمام الطبري عن الإمام الحسن البصري[63].

– الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للإمام الزمخشري (ت 538هـ).

اعتمد الإمام السخاوي على هذا الكتاب في ما يتعلق بالجوانب النحوية والإشارات والنكت البلاغية، كيف لا وكتاب الكشاف من أوائل وأهم كتب التفسير التي تناولت التفسير من جانب اللغة والنحو والإعراب والبلاغة، كما أنه من الكتب التي تلقاها المفسرون بالقبول، واطلاع الإمام السخاوي الواسع، واشتغاله بعلم التفسير، لا يسمح له أن يقوم بمهمة التفسير دون أن ينظر في هذا الكتاب الضخم.

ومن أمثلة ما نقله الإمام السخاوي من تفسير الزمخشري ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[64]، الضمير يرجع إلى المثل أو إلى ضربه. وإنما قال: ﴿ وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ والمهديون قليل بالنسبة إلى الضالين وإن كانوا في أنفسهم كثيرا[65].

كما لا شك أيضا أن يكون الإمام السخاوي قد أفاد من كتب علوم القرآن التي هي بمثابة قواعد وضوابط بالنسبة للتفسير، وخاصة ما يتعلق بأسباب النزول، ومعرفة المكي والمدني، وذلك "**كأسباب نزول القرآن" لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: 468هـ)**، الذي يعد من أوائل من كتب في الموضوع، وقلما تجد مفسرا لم يستعن به رغم ما قيل فيه.

وأكتفي هنا – بدل سوق بعض النماذج – بإرشاد القارئ إلى الوقوف على تفسير الإمام السخاوي ليلحظ بنفسه، كيف يسوق الإمام السخاوي أسباب النزول، وكيف يوظفها في بيان المراد من الآيات.

- **مصادر الإمام السخاوي في الحديث:**

– كتاب الموطأ، للإمام مالك بن أنس الأصبحي (ت197هـ).

– مسند الإمام أحمد بن حنبل، لأحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (المتوفى: 241هـ).

– الجامع الصحيح، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256هـ).

– صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت 261هـ).

– سنن أبي داود، لأبي داود السجستاني (ت 275هـ).

– سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن سورة (ت 279هـ).

- **مصادر الإمام السخاوي في النحو والمعاني:**

– ديوان لبيد بن ربيعة العامري، للَبِيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري (المتوفى: 41هـ).

– جمهرة اللغة، لأبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: 321هـ).

– ديوان امرؤ القيس، لامرِئ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي، (المتوفى: 545 م).

– مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لعبد الله بن يوسف ابن هشام (المتوفى: 761هـ).

من هنا يتبين لنا بعض النماذج من المصادر التي اعتمدها الإمام السخاوي– رحمه الله – في بناء مادته التفسيرية، فكان أحيانا يتصرف في العبارات ويلخص ويضيف، وأحيانا يعمم كلامه فيقول: قيل:"كذا..." ونحو ذلك من العبارات التي تبرز للقارئ أن الإمام السخاوي لم يكن مفسرا عاديا، بل يعرف كيف يربط هذه بهذه، ويخيط هذه مع هذه، منتقيا في ذلك أحسن العبارات. وهذا ليس بغريب من الإمام السخاوي الذي يعد بحق المفسر المقتدر، ذو خبرة ومهارة مكنته من أن ينقل من مصادر متعددة المشارب، دون أن يشعر القارئ بأنه نقل، أو عمد إلى كتاب فأعاد نسخه، وذلك لدقة تعبيره، وحسن إشاراته، فكان بذلك موفيا وملتزما بالشرط الذي اشترطه على نفسه في المقدمة.

المبحث الثاني: منهج الإمام علم الدين السخاوي في تفسيره.

يستهدف هذا المبحث الوقوف على أهم السمات والركائز التي عول عليها السخاوي رحمه الله في تفسيره، مع بيان معالم المنهج الذي اقتفاه في كتابه، ذلك أن تفسير الإمام السخاوي ليس تفسيرا أثريا محضا، وإنما هو جامع بين التفسير بالرواية والدراية، وتجدر الإشارة إلى أن ما أتيح لي الوقوف عليه في تفسيره هو سورتي الفاتحة والبقرة من التفسير، إذ فيهما من الأصول والقواعد ما يعين على استشفاف دخائل الطريقة التي انتهجها وارتضاها المصنف في كتابه، وستتم دراسة هذا المبحث عبر مطالب تعالج جزئياته.

المطلب الأول: مميزات تفسير القرآن العظيم وخصائصه.

لم يقدم السخاوي لتفسيره بمقدمة تحدد معالم منهجه الذي سيسلكه كما هو المعهود عند الكثير من المصنفين، إنما اكتفى بمقدمة مقتضبة أبان فيها أن القرآن من أشرف الكتب المنزلة، وأنه أدل دليل على رسالة نبيه وأكمله ثم أردف بقوله:" فاستخرت الله تعالى في سلوك طريق متوسط، لا بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، ساعيا في تهذيب الألفاظ وتحريرها، وإيجازها وتيسيرها، مشيراً إلى عيون القصص بأحسن إشارة، متوخيا في الإعراب والأقوال وغيرهما أوجز عبارة، وهو عمدة لمن اعتمد عليه، والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه، موجبا للفوز لديه، وهو حسبي ونعم الوكيل"[66].

فمن خلال هذه المقدمة المختصرة، لا يتضح المنهج الذي سيسير عليه المصنف في كتابه، إلا أنه بعد توفيق من الله تعالى استطعت أن أتبين معالم هذا المنهج الذي احتذاه المصنف في كتابه ويمكن إجمال أهم سماته في ما يلي:

– افتتح السخاوي كتابه بمقدمة وجيزة ثم شرع في تفسير سورتي الفاتحة والبقرة آية آية وفق الترتيب القرآني لها؛ شارحا غريبها، ومبينا معانيها ومعربا ألفاظها وموجها قراءتها على النحو الذي سنتبينه في هذا المبحث.

– درج رحمه الله على ذكر السورة القرآنية، فيذكر مكيتها ومدنيتها.

– أودع السخاوي في تفسيره من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والشواهد الشعرية الشيء الكثير.

– تميز أسلوبه في الكتاب بالسلاسة والعذوبة في التعبير، والبعد عن الغموض والتكرار والإطناب، والميل إلى الاختصار غير المخل، وهذا دأبه في جميع مؤلفاته.

– الاعتناء بمفردات القرآن لغة واشتقاقا وتصريفا وإعرابا، وقد كان أثناء ذلك يختار شواهده من القرآن الكريم والسنة المطهرة وأشعار العرب، مما يجعل الكتاب زاخراً بثروة جليلة من المواد اللغوية المشروحة.

– لا يقوم بالعزو المباشر لما نقله من آراء الغير في التفسير؛ فمثلا يذكر القول فيقول: قيل: كذا.

– يجعل الإمام السخاوي تفسير الآية دليلا لما يذهب إليه، من قواعد وآراء في أصول مذهبه.

– لجوء السخاوي إلى السجع في تعبيره، مما أبان عن سعة إطلاع الرجل على مخزون اللغة، ثم إن هذا السجع جاء في مواطن قليلة من الكتاب، في مقدمته وفي ثنايا تفسيره لسورتي الفاتحة والبقرة.

من خلال هذا التحليل الشامل لدراسة أسلوب الكتاب، ينكشف لنا انطباعاً عما يمتلكه السخاوي من صناعة تفسيرية ولغوية، فهو ينطلق من خلال ما يفعمه من رصيد فكري مُتَنَعِّم، واطلاع شاسع على مختلف العلوم والفنون.

وعند التأمل في المقدمة التفسيرية للإمام علم الدين السخاوي، نستطيع أن ندرك أن رؤيته لعلم التفسير تختلف عن باقي المفسرين، من حيث إنه قصد أن يسلك طريقة تفي بالغرض من التفسير، سواء من حيث تقريب معاني آياته، والوقوف على بعض أحكامه، أو من حيث بيان طريق الهداية فيه وإعجازه وحكمه، باعتباره أن القرآن الكريم هو طريق هداية واسترشاد، ومن أجل تحقيق هذه الغاية؛ قام الإمام السخاوي بمهمة إخراج التفسير بهذه الحلة الجميلة، وكأنه بهذه الطريقة يريد أن يقول للمفسرين خصوصا وللقراء عموما، هذا ما ينبغي أن يكون عليه علم التفسير، وهذا الذي على المفسر أن يقصده، حتى لا يخرج التفسير عن موضوعه بسبب تشعب الكلام فيه وإدخال فيه ما ليس منه. وهذا ما أشار إليه في مقدمته بقوله: "فاستخرت الله في سلوك طريق متوسط، لا بالطويل الممل ولا بالقصير المخل... إلى أن قال وهو عمدة لمن اعتمده".

وصنيع الإمام السخاوي هذا جاء بعد اطلاعه الشامل على كتب المفسرين وأقوالهم ومناهجهم سواء ممن تقدمه أو ممن عاصره، مما جعله ينحى بالتفسير منحى آخر، وحق له أن يقوم بهذه المهمة لما له من تمكن كبير وباع طويل في هذا المجال، ولا أدل على ذلك من كثرة مؤلفاته في القرآن وعلومه، لما لعلوم القرآن من أهمية كبيرة في الإقدام على تفسير القرآن الكريم، أضف إلى ذلك أن الرجل كان من المشتغلين بعلم التفسير والممارسين له، فجاء تفسيره هذا مطبوعا بهذا الطابع الخاص، ومبنيا على أصول وقواعد متينة ساعدته على إخراج تفسيره من غياهب الحشو والتطويل، إلى عالم الاعتبار والتأصيل.

المطلب الثاني: منهج الإمام السخاوي في التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي.

إن القارئ لتفسير القرآن العظيم للإمام علم الدين السخاوي ينكشف له بجلاء عنايته البالغة بالتفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، ذلك أنه يستدعي ما تيسر له من بضاعة تفسيرية؛ وذلك بالركون إلى تفسير القرآن بالقرآن، أو استخدام ثقافته الحديثية الواسعة، أو الاستشهاد بأقوال الصحابة والتابعين، وكذلك الاهتمام باللغة العربية.

ومن خلال هذا المنطلق سأقوم بتوضيح هذا الأمر عبر الوقوف على أرجاء تفسيره لسورتي الفاتحة والبقرة، والاستشهاد ببعض الأمثلة التي تغني المقام بذكرها.

أولا: منهج الإمام السخاوي في تفسير القرآن بالقرآن.

أبدى السخاوي – رحمه الله – اهتمامه البالغ بهذا اللون من التفسير، إذ لا تكاد تخلو صفحة من صفحات تفسيره من الشواهد القرآنية ما يجعلها تثري المقام، فقلما تخلو مسألة منها؛ وهذا ليس غريبا من رجل كالسخاوي؛ الذي وضع في مصاف القراء الكبار. ونماذج هذا الوجه من البيان كثيرة أذكر منها:

ما فسر به قوله عز وجل: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[67]، قال رحمه الله: "يعني التوراة. وقيل: القرآن. ﴿ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ أي: لم يعملوا بما فيه ولقد وضعوه على الكراسي وذهَّبوه بالذهب، وحلوا غلافه وخريطته بالذهب والفضة، وطيبوه بالمسك والعنبر، ولم يعملوا به فقيل فيهم: ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾[68] ، ثم استبدلوا به ما أخذوه من الرشا على كتمان صفة النبي صلى الله عليه وسلم وتغيير آية الرجم وغيرهما"[69]. وهذا المثال من قبيل بيان معنى المفردة بسياق لها آخر أوضح من الأول.

كذلك من الأمثلة قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[70]، يقول السخاوي: "وأكثر ما في القرآن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يراد به أهل مكة، وأكثر ما فيه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يراد به: أهل المدينة، وقوله: ﴿ خَلَقَكُمْ﴾ يجوز أن يريد به: اعبدوا الرب الذي خلق ولا تعبدوا ربّاً غيره؛ كقوله:﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾[71]، ويجوز أن يراد به الثناء؛ كقوله: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[72] "[73]. وهذا النموذج من قبيل بيان معنى المفردة بآية نظيرة في الموضوع.

ثانيا: منهج الإمام السخاوي في الاستشهاد بالقراءات.

عنى الإمام السخاوي عناية فائقة بالقراءات القرآنية باعتبارها مصدرا من مصادر التفسير، فيحاول في معظم الأحيان عقب تفسيره للآيات إيضاح وبيان القراءات التي رُويت حول تلك الآية وتوجيهها دون عزوها لأصحابها وإسنادها لقائليها. ومن الأمثلة التي توضح اهتمام السخاوي بالقراءات قوله في قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[74]:" من قرأ " اعلم " على الأمر فقد خاطب المار بذلك رفيقا معه، جادله في القدرة على إحياء الموتى"[75].

ثالثا: منهج الإمام السخاوي في تفسير القرآن بالسنة.

التمس السخاوي رحمه الله بيانه لكتاب الله تعالى من السنة فاتخذها الأساس الثاني لتفسير القرآن الكريم وفهمه.

والناظر في تفسيره – رحمه الله – يلاحظ أنه عند استشهاده بالأحاديث لم يعتن بذكر الأسانيد طلبا للاختصار والإيجاز، ولم يلتزم أيضا تخريج الأحاديث ونسبتها إلى مصادرها من كتب الحديث، وقد وردت أحاديث كثيرة في تفسيره واختلفت مواضع استشهاده بها فهي أحياناً في توضيح المعنى، وأحياناً أخرى في بيان حكم شرعي. ومن أجل تجسيد طريقته في استخدام الأحاديث أود أن أعطي المثال عند تفسيره لقوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلاَّ بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ

بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾[76]:" ولا يتجاسر أحد على الشفاعة عنده إلا بالإذن[77]، يعلم ما سبق من أمور خلقه، وما يأتي، ولا يعلمون من معلوماته ﴿ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ أن يعلمهم إياه. ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ﴾ أي ملكه، وقيل: علمه، مأخوذ من كرسي الملك، والعالم. وقيل: الكرسي مخلوق، ليس بعد العرش أعظم منه والسموات والأرض بالنسبة إليه كحلقة في فلاة"[78].

ومما أتى على هذا النحو نجد تفسيره لقوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[79] قال فيه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ ﴾ كمثل زارع حبة أو مثل نفقة الذين ينفقون[80] ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ﴾، "وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ، فَقَالَ: يا رسول الله هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُ مِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ "[81].

من خلال هذه النماذج يتضح لنا أن السخاوي كان يستشهد بالسنة النبوية؛ لتوضيح معاني الكلمات في تفسيره للقرآن الكريم. فنجده تارة يفسر التركيبة (تركيبة الجمل) المذكورة في الآية بكلام النبي عليه الصلاة والسلام، وتارة أخرى يستخدم الحديث كمسند لتأييد المعنى الذي يختاره.

رابعا: منهج الإمام السخاوي في تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين.

المتتبع لتفسير الإمام علم الدين السخاوي يجد أنه بجانب عنايته بالمأثور من الكتاب والسنة أولى عنايته للأخذ بالمأثور من أقوال الصحابة والتابعين، والشواهد على ذلك مستفيضة منها قوله تعالى:

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[82]، يقول:" التقوى الحظر والتشمير. وسأل عمر بن الخطاب [كعب الأحبار] عن التقوى فقال: يا أمير المؤمنين، هل سلكت طريقا فيه شوك؟ قال: نعم. قال وكيف صنعت؟ قال: حذرت وشمرت، قال: كذلك التقوى[83].

ومن النماذج قوله عز وجل: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[84]: "ومن المنافقين طائفة أميون لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة من غير فهم وتدبر. وقيل: إلا أكاذيب. قال عثمان رضي الله عنه:" **ما تمنيت منذ أسلمت** "[85] أي: ما كذبت. وقيل: هو استثناء منقطع، أي: لا يعلمون الكتاب لكنهم يتمنون أمورا منها: أن آباءهم تشفع لهم. ومنها: أن ما يعملون بالنهار يكفر عنهم بالليل، وما يعملونه ليلاً يكفر عنهم نهاراً "[86].

خامسا: منهج الإمام السخاوي في تفسير القرآن باللغة:

أقام السخاوي تفسيره على أساس من اللغة والنحو في بيان معاني المفردات، واستشهد على ذلك بالأبيات الشعرية، حيث يذكر معنى الكلمة ويردفها أحيانا بشاهد من كلام العرب، في حين يتطرق لمعالجة بعض المسائل النحوية، وبعد الكشف عن معاني المفردات، يتوجه إلى إظهار جمال ولطائف أسلوب البيان في ذلك القسم وفي تلك الكلمات، وكان في غالب الأحيان يكثر من ذكر الوجوه الإعرابية في الآية وبيان

المذاهب النحوية وغالبا ما يكتفي بذكر الرأي الذي يرجحه على الآراء الأخرى، وفي بعض المواضع يترك الخيار للقارئ من خلال إبداء جميع الآراء المطروحة، إلى غير ذلك من الأمور التي يجدها القارئ خلال مطالعته للكتاب.

فعلى سبيل المثال، عندما يحلل تركيب آية ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾[87] يقول: "والخداع: إظهار ما يسر المخاطب مع قصده ضرره في الباطن؛ فقيل: أصله من الإخفاء، ومنه المخْدَع يخفى فيه مالا يشتهى إظهاره من الزوجات والأموال. وقيل: أحوال الفساد؛ كقول الشاعر [من الرمل]:

'طَيِّبَ الرِّيقِ إذا الرِّيقُ خَدَعْ'[88]

والله تعالى لا يخادع ولا يخادع فيما معاملته معاملة الخادع. وأما المؤمنون فلا يخادعون ولكنهم قد يُخدعون، وما رجع الخداع إلا على المخادع"[89].

ففيما سبق أوضحت باختصار المعالم الكبرى لمنهج الإمام السخاوي في كتابه، وآمل من الله أن أكون قد وفقت إلى ذلك.

خاتمة:

بعد هذه المحطات التي وقفت عندها للتعريف بالإمام علم السخاوي رحمه الله وبكتابه أستخلص ما يلي:

أولا: فيما يتعلق بالإمام السخاوي

– أن الإمام السخاوي قد حظي باهتمام كبير لدى جل من ترجموا له، ولذلك توافرت المعلومات عن حياته وعصره، سواء فيما يتعلق بتاريخ ومكان ولادته ووفاته، أو فيما يتعلق بحياته العملية، وآثاره العلمية، وإن على تفاوت نوعا ما في ذلك بين المترجمين له.

– أن السخاوي رحمه الله عاش في عصر عرف تحولا كبيرا على المستوى الفكري والعلمي، وازدهارا كبيرا خصوصا في الثقافة والعلم والمعرفة، حيث عاصر علماء أجلاء، أبدعوا في كل المجالات، بالإضافة إلى اشتغالهم على تنقيح العلوم، وتصفيتها مما قد علق بها مما ما ليس منها، ولا أدل على ذلك من تفسير السخاوي الذي نحا به منحى التحرير والتهذيب، والاختصار والترتيب.

– من خلال فحص الآثار العلمية للسخاوي، نجده أنه تخصص في علم التفسير أو بالأحرى في علوم القرآن وكرس نفسه لخدمة القرآن الكريم، وهذا ما تشهد به كثرة مؤلفاته في هذا العلم، كما كانت له مشاركة كبيرة في السيرة النبوية، حيث ألف كتبا كثيرة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله.

بالإضافة أيضا إلى ولعه الكبير بعلوم اللغة العربية، ويظهر ذلك جليا في تفسيره، وفي قول الذين شهدوا له بالبراعة في العربية.

– أن الإمام السخاوي رحمه الله — رغم كثرة مشايخه– كان من الذين ينتقون المشايخ في طلبهم للعلم، فكانوا لا يأخذون إلا عن الذين لهم قدم راسخ في العلم والمعرفة.

– أن السخاوي رحمه الله تأثر ببيئته على المستوى المذهب الفقهي، والمذهب العقدي، حيث كان في بداية الأمر مالكيا تأثرا بشيوخه من المالكية، ثم في نهاية المطاف استقر على المذهب الشافعي نظرا لكونه هو المذهب السائد في مصر مقارنة مع المذهب المالكي.

أما مذهبه العقدي فقد نشأ أشعريا منافحا عن العقيدة الأشعرية، وذلك أن العقيدة الأشعرية عرفت نوعا من التحول سواء في المنهج أو في بعض المباحث العقدية، فأصبحت ما تسمى بطريقة المتأخرين، ويتجلى ذلك في كون الإمام السخاوي كثيرا ينبه في تفسيره على بعض المسائل العقدية، خصوصا إذا كان فيها قول للمعتزلة فيأتي به للرد عليهم.

ثانيا: فيما يتعلق بالكتاب (تفسير القرآن العظيم للسخاوي)

بعد ما عرفت بتفسير الإمام السخاوي رحمه الله ألاحظ ما يلي:

– أن تفسير السخاوي قد أجمع العلماء على صحة نسبته إليه بهذا العنوان وهو" تفسير القرآن العظيم".

– أنه يعد من المصادر المهمة لمن أتى بعده من المفسرين، فقد نقل عنه ابو حيان، وابن كثير، وابن الجوزي، وكثير غيرهم، مما يدل على أهمية هذا الكتاب وقيمته العلمية.

– أن هذا التفسير لم يعتن به المحققون والدارسون– على أهميته– فقد ظل حبيس الخزانة إلى أن قام بتحقيقه أحد الباحثين، ولكنه تحقيق لم يوف بحق هذا السفر العظيم.

– أن هذا التفسير تميز عن باقي كتب التفسير، باعتبار كونه جاء في غاية الدقة من الاختصار والتهذيب والتحرير، بعبارات كشفت عن قدرة عالية ومهارة كبيرة، في حسن الصياغة، وجمال العبارة، ولطف الإشارة، بالإضافة إلى ما تميز به على مستوى المنهاج والبناء، من حسن الترتيب، وقوة البناء والتأليف.

– أن مصادر الإمام السخاوي في تفسيره وإن تنوعت واختلفت بين ما أثر عن الصحابة والتابعين وبين ما أثر عن غيرهم، فإنه يصعب تحديدها والتمييز بين قوله، وقول غيره من المفسرين، ولكن لا يخفى على أحد أن يقوم السخاوي بمهمة التفسير دون الاطلاع على تفسير الطبري والإفادة منه، وكذا تفسير الزمخشري ونحوهما من المحققين في علم التفسير.

الهوامش:

[1] تنظر ترجمته في : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، لشهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: 626هـ)، تحقيق إحسان عباس، عدد الأجزاء: 7، نشرة دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1993 م، 5/ 1963. تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف بالذيل على الروضتين، للحافظ المؤرخ أبي شامة المقدسي الدمشقي (المتوفى 665هـ)، نشرة دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، 1974م، ص 177. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: 681هـ)، تحقيق إحسان عباس، عدد الأجزاء: 7، استانبول 1951، أعادت طبعه بالأوفست: دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان، 1/ 708.

[2] هكذا في جمهرة أنساب العرب، لابن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: 456هـ)، عدد الأجزاء: 1، نشرة دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1983/1403، ص 392.

[3] ينظر معجم البلدان، لشهاب الدين ياقوت الحموي، باب السين والخاء وما يليهما (سَخا) 3/ 196.

[4] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان ، 3/ 341.

[5] البداية والنهاية، لابن كثير القرشي البصري (المتوفى: 774هـ)، تحقيق علي شيري، نشرة دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى 1408، هـ - 1988 م، 13/ 198.

[6] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، 7/ 322، في ما نقله الدكتور إحسان عباس محقق الكتاب عن ابن الشعار.

[7] سير أعلام النبلاء، للذهبي، 23/ 122.

[8] معجم الأدباء، لياقوت الحموي، 5/ 1963.

[9] ينظر إبراز المعاني من حرز الأماني، لأبي شامة (المتوفى: 665هـ)، عدد الأجزاء: 1، نشرة دار الكتب العلمية، ص: 8.

[10] المرجع السابق: 5/ 1963.

[11] ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، 23/ 122- 123.

[12] ينظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، 47/ 196.

[13] ينظر: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، للذهبي، 1/ 427.

[14] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان،، 7/ 322.

[15] المرجع السابق: 7/ 322.

[16] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 1/ 105.

[17] شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 6/ 529.

[18] غاية النهاية في طبقات القراء، 1/ 278.

[19] الذيل على الروضتين، ص :121.

[20] غاية النهاية في طبقات القراء، 2/ 21.

[21] الذيل على الروضتين، ص 7، غاية النهاية في طبقات القراء، 2/ 23، طبقات الشافعية الكبرى، 7/ 272.

[22] المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ليوسف بن تغري بردي بن عبد الله الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى: 874هـ)، حققه ووضع حواشيه: دكتور محمد أمين، تقديم: دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، عدد الأجزاء:7 نشرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1/ 62.

[23] المصدر السابق، 1/ 98.

[24] ذيول العبر، للذهبي، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، عدد الأجزاء: 4، نشرة دار الكتب العلمية – بيروت، 4/ 12.

[25] طبقات الشافعية، تقي الدين ابن قاضي شهبة (المتوفى: 851هـ)، تحقيق د. الحافظ عبد العليم خان، عدد الأجزاء:4، نشرة عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى، 1407 هـ، 2/ 130.

[26] الذيل على الروضتين، ص 177.

[27] طبقات الشافعية الكبرى، 8/ 165.

[28] سورة القيامة، الآية: 23.

[29] ينظر: تفسير القرآن العظيم، لعلم الدين السخاوي(643هـ)، تحقيق وتعليق الدكتور موسى علي موسى مسعود، وأشرف محمد عبد الله القصاص، نشرة دار النشر للجامعات، الطبعة الأولى، القاهرة،1430هـ- 2009م، 2/ 546.

[30] سورة البقرة، الآية: 255.

[31] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي (المتوفى: 542هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، نشرة دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - 1422 هـ، 1/ 340.

[32] سورة البقرة، الآية: 24.

[33] تفسير القرآن العظيم، لعلم الدين السخاوي، 1/ 60.

[34] المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، لتقي الدين المقريزي (المتوفى: 845هـ)، عدد الأجزاء: 4، نشرة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1418 هـ، 166/4.

[35] الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، لأحمد أحمد بدوي، نشرة دار نهضة مصر للطبع والنشر، ص 104.

[36] شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 7/ 385.

[37] تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، لشمس الدين الذهبي (المتوفى: 748هـ)، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، عدد الأجزاء: 52، نشرة دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، 1413 هـ - 1993م، 14/ 460.

[38] الوافي بالوفيات، 22/ 44.

[39] طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، 8/ 297، طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة، 2/ 117.

[40] معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، 1/ 340.

[41] حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، 1/ 412.

[42] المصدر السابق: ص: 177.

[43] سير أعلام النبلاء، 23/ 123.

[44] العبر في خبر من غبر، 3/ 247.

[45] غاية النهاية في طبقات القراء، 1/ 569.

[46] العبر في خبر من غبر، 3/ 247.

[47] طبقات الشافعية الكبرى، 8/ 297.

[48] هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، 1/ 708.

[49] البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، 1/ 217.

[50] جمال القراء وكمال الإقراء، 1/ 773.

[51] المرجع السابق: 1/ 708.

[52] إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، لعبد الباقي بن عبد المجيد اليماني، تحقيق الدكتور عبد المجيد دياب، الطبعة الأولى (1406هـ / 1986م، نشرة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ص 278.

[53] ينظر: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، 2/ 1830، بعنوان (المناسك في أربعة مجلدات).

[54] ينظر: غاية النهاية في طبقات القراء، 1/ 570.

[55] البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي (المتوفى: 745هـ)، تحقيق صدقي محمد جميل، نشرة دار الفكر – بيروت، الطبعة: 1420 هـ، 2/ 546.

[56] سورة التوبة، الآية: 36

[57] تفسير القرآن العظيم، لابن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، تحقيق سامي بن محمد سلامة، عدد الأجزاء: 8، نشرة دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ -1999م، 4/ 146.

[58] تفسير القرآن العظيم، لعلم الدين السخاوي، الأ 1/ 48.

[59] غاية النهاية في طبقات القراء، 1/ 570.

[60] تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، للذهبي (المتوفى: 748هـ)، تحقيق الدكتور بشار عوّاد معروف، عدد الأجزاء: 15، نشرة دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 2003 م، 14/ 460.

[61] سورة البقرة، الآية: 69.

[62] ينظر: تفسير القرآن العظيم، لعلم الدين السخاوي، 70/1.

[63] جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير الطبري (المتوفى: 310هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، عدد الأجزاء: 24، نشرة مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000م، 2/ 198.

[64] سورة البقرة، الآية 26.

[65] ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري (المتوفى: 538هـ)، عدد الأجزاء: 4، نشرة دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1407هـ، 118/1.

[66] تفسير القرآن العظيم، لعلم الدين السخاوي، 1 / 48.

[67] سورة البقرة، الآية: 101.

[68] سورة آل عمران، الآية: 187.

[69] تفسير القرآن العظيم لعلم الدين السخاوي، 1/ 80.

[70] سورة البقرة، الآية: 21.

[71] سورة يوسف، الآية:39

[72] سورة الفاتحة، الآية: 1.

[73] تفسير القرآن العظيم لعلم الدين السخاوي، 1/ 59.

[74] سورة البقرة، الآية: 259.

[75] تفسير القرآن العظيم لعلم الدين السخاوي، 1/ 122.

[76] سورة البقرة، الآية: 255.

[77] تفسير القرآن العظيم لعلم الدين السخاوي، 1/ 119.

[78] أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب الصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كل خير حظ رجاء التخلص في العقبى بشيء منها. أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ بْنُ سُفْيَانَ الشَّيْبَانِيُّ، وَالْحُسَيْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَطَّانُ بِالرَّقَّةِ، وَابْنُ قُتَيْبَةَ، وَاللَّفْظُ لِلْحَسَنِ، قَالُوا: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِشَامِ بْنِ يَحْيَى الْغَسَّانِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: " يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَيُّ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ أَعْظَمُ؟، قَالَ: «آيَةُ الْكُرْسِيِّ» ثُمَّ، قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ".

[79] سورة البقرة، الآية: 261.

[80] تفسير القرآن العظيم لعلم الدين السخاوي، 1/ 123.

[81] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الصدقة في سبيل الله وتضعيفها، وأخرجه النسائي في سننه، كتاب الجهاد، باب فضل الصدقة في سبيل الله عز وجل.

[82] سورة البقرة، الآية: 2.

[83] تفسير القرآن العظيم لعلم الدين السخاوي، 1/ 52.

[84] سورة البقرة، الآية: 78.

[85] ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحي، عدد الأجزاء: 5، نشرة المكتبة العلمية – بيروت، 1399هـ – 1979م، 4/ 367. التمني: التكذب، تفعل، من منى يمني، إذا قدر، لأن الكاذب يقدر الحديث في نفسه ثم يقوله، ويقال للأحاديث التي تتمنى: الأماني، واحدتها: أمنية.

[86] تفسير القرآن العظيم لعلم الدين السخاوي، 1/ 75- 76.

[87] سورة البقرة، الآية: 9.

[88] عجز بيت لسويد بن أبي كاهل وصدره:(أَبْيَضَ اللَّوْنِ لَذِيذاً طَعْمُهُ). ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس للزَّبيدي، نشرة دار الهداية، 20/ 484.

[89] تفسير القرآن العظيم لعلم الدين السخاوي، 1/ 54-55.